محاضرة 02: التربية والتعليم في العهد العثماني بالجزائر

1- مدخل تاريخي:

مثل العثمانيون منذ وجودهم بالجزائر جدار الحماية من القوات الصليبية التي تكررت هجماتها على الشمال الإفريقي، وقد كان العثمانيون في بداية أمرهم يمثلون القوة العسكرية أكثر من تمثيلهم القوة السياسية أو العلمية، وهذا بحكم الظروف التي كان يعيشها الشمال الإفريقي عموما والجزائر خصوصا. حيث وضع الإخوة **عروج وخير الدين** أساس السلطان التركي بفتح مدينة الجزائر 1516 ببسطه نفوذه على سائر بلاد الجزائر، لتصبح بعد ذلك ولاية تابعة للخلافة العثمانية وذلك لمدة ثلاثة قرون كامل، حاول خلالها العثمانيين رد زحف الصليبين وغزوهم على الشريط الساحلي للشمال الإفريقي.

خلال هذه الحقبة التاريخية الطويلة لتواجد العثماني في الجزائر؛ امتزج الفرد الجزائري بالتركي امتزاج روحي وإنساني، أضفاه عدل وحكمة خير الدين عند وصوله للجزائر، حيث كان يسير على مبدأ العدل والمساواة، ما حبب سكان الجزائر فيه عند بداية التواجد العثماني في الجزائر، لكن سرعان ما تغيرت الظروف، والحكام وتحولات العلاقة بين العثمانيين والجزائريين إلي علاقة حماية من التحرشات الصليبية وبحثا عن الاستقرار من طرف سكان الجزائر آنذاك. حيث سيطر الأتراك على الجزائريين واستبعدوهم من الحياة السياسية وحتى الاجتماعية واعتبرهم من الطبقة الثالثة. إذ أكبر ما يميز التواجد العثماني في الجزائر هو التحول الجذري من النمط الحضري من مجتمع سكن المدينة إلى مجمع سكن الريف. حيث تميز التواجد السكاني بتوزيع جغرافي تمثل في :

- **سكان المدن**: يمثلون أغلبيتهم الوجود العثماني ويتوزعون كالتالي:

- الجنود الأتراك " الانكشارية " الذين استقروا بحصون مدينة الجزائر وقد كانوا قلية (لعدم الزواج الأتراك بالجزائريين).
- جماعة الكراغلة: تكونت نتيجة لتزاوج أفراد الجيش الانكشاري بنساء البلاد.(وهي حالات قليلة)
- سكان الحضر: المجموعة الكاسحة القاطنة بالمدن، والتي تعود أصولها إلى الفترة الإسلامية (برجوازية المدن والأغنياء).
- مجموعة البرانية، جماعة وبني ميزاب، جماعة البساكرة، جماعة الزنوج، الجواجلة، القبائل، جالية يهودية، -

- **سكان الأرياف:** يمثلون غالبية السكان، وهم الجزائريون؛ ويمكن تصنيفهم وفق علاقتهم بالحكام الأتراك ودورهم في المجتمع الي:

- قبائل المخزن:هي مجموعة سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، وهي تجمع بين (العبيد، والكراغلة، وعرب الصحراء)، تقوم بجمع الضرائب، وإيقاع العقاب بالمعادين للبايلك.
- قبائل الرعية: هم قبائل مقيمة بالدواوير والمداشر وخاضعة لحكم البايلك، وهي قبائل مظطهدة تعيش الاستغلال.
- المجموعات السكانية المتحالفة: يعتمدون على النفوذ الديني، والكفاءة الحربية، يتعاملون مع البايلك عن طريق شيوخهم.
- المجموعات السكانية الممتنعة عن حكم البايلك: أغلبها قبائل تعيش في المناطق الجبلية كالبابور، والجرجرة، والونشريس، لم تعترف بالحكم العثماني.

اما في المجال السياسي فقد كانت بلاد المغرب تعيش صراع سياسي حول الحكم والملك وقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية عاقبة وخيمة على الحياة الثقافية، فهاجر بعض العلماء إلى المشرق وربط آخرون مصيرهم ببعض الأمراء، بينما انزوى بعضهم مفضلا حياة الزهد والتصوف. ووسط هذه الصورة المضطربة للحياة السياسية كانت هناك بعض المدن تزهو وتشع مدارسها ومساجدها ثقافة؛ يتغذى منها المجتمع عقليا وروحيا: **كتلمسان** و **وبجاية** و**مازونة** و**وهران** و**الجزائر** وعنابة **وبسكرة.**

وفي هذا يقول **الأستاذ توفيق مدني** عن عصر الدولة العثمانية في الجزائر وما امتازت به في شأن العلم والتعليم فقال: " لم تخمد الحركة العلمية في هذا العصر، ولم يقف دولاب العلم والتعليم في أي ناحية من نواحي البلاد، بل كان الكثير من الأتراك وأعيانهم ينشطون العلم والمتعلمين بما حبسوه على تلك المشاريع من الأوقاف الغنية ذات الريع الكبير."

2- مؤسسات التربية والتعليم في العهد العثماني:

بالنسبة للمجال العلمي والثقافي شارك الجزائريون في صنع الثقافة العربية الإسلامية خلال الحكم العثماني ، غير أننا لا نملك تاريخا ثقافي واضح عن تراث وانجازات الجزائريين في تلك الفترة ، حيث أن العهد العثماني في جميع مصادره لا يزال غير مدروس بشكل واضحًا وموضوعيا، رغم أن الثقافة هي جوهر الوجود في حاضره وماضيه. غير ان ما ورد على العلماء والمؤرخين المشارقة والجزائريين، وحتى الضباط والعلماء الفرنسيون الذين وصفوا

حالة العلم عشية الاستعمار؛ أمثال **ميشال هابار** والذي قال: "إن التعليم كان منتشرا في كامل القطر الجزائري، حيث كان كل الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة، بالإضافة العلوم الأخرى، وبعض اللغات الأجنبية، بل كانت كل قرية لديها مدرسة "

ولقد كانت أهم مؤسسات التربية والتعليم آنذاك ؛

1. **المساجد**:

تعتبر المساجد من أهم المؤسسات الدينية وتتمحور وظيفتها في أداء الصلوات وحفظ القرآن وتعليم الفروض المختلفة، وقد كانت مرتعا لتعليم وحلقات للدروس اليومية لمختلف فنون العلم لاسيما في القرى والمدن.

- وتنقسم المساجد في العهد العثماني من حيث تأسيسها؛ إلى مساجد أسسها الخلفاء والأمراء والولاة وهو جزء من عملهم الوظيفي اتجاه المسلمين؛ إما لشهرة أو لكسب عطف الرعيّة.
- ومساجد أسسها الأتراك لكسب الشهرة أو التقرب لله والتقرب للعامة.
- ومساجد أسستها فئات دينية أو مؤسسات خيرية وهي معظم مساجد الجزائر.

كانا المسجد والمدرسة متلازمين في العهد العثماني، والتعليم قضية أهلية مرتبطة بالسكان، حيث تميزت مجهودات العثمانيين بإسهامهم في تشجيع بناء المدارس، إذ أنشأ **صالح باي** مدرسة الكتانية وألحق بالجامع الأخضر هذه المدرسة.

- لقد شجع العثمانيين التعليم برصد الأوقاف و الأحباس التي تتخذ طابعا دينيا لمساعدة الطلبة والغرباء وصيانة المساجد.

2. **المدارس القرآنية**:

انتشرت بشكل واسع في العهد العثماني بمحاذاة المساجد لارتباط العالم بالدين، وتنوعت معارفها وعلومها من العلوم الدينية التي تقوم على حفظ القرآن وتفسيره وشرح الحديث والفقه والتوحيد والمنطق إضافة إلى علوم اللغة والبلاغة والعروض والقوافي الأدبية والإملاء.

ساهمت المدارس بشكل فعال في الجانب العلمي وتكوين القضاة والموظفين، أين يكون التدريس فيها بعد موافقة الداعي واقتراح مسؤول الأوقاف.

3. **الزوايا والطرق الصوفية**:

انتشرت بشكل واسع وكبير جدًا في العهد العثماني في القرن 13هـ، كان يقصد بها المسجد الصغير ويقصدها المتدينين للعلم والعلاج والاعتكاف والتصوف والابتعاد عن ملذات

الحياة والمدنية، حيث كان لكل زاوية وليّ صالح في المدينة يحرسها ويحمل البركة ويمنع عنها الاعتداءات والمشاكل على حد اعتقاداتهم آنذاك.

مثلت مرحلة التعليم فيها الدمج بين الثانوي والتعليم العالي؛ حيث يقوم فيها التعليم على الحفظ ولاستظهار و المناقشة وإثراء الأفكار، ظهرت في تلك الفترة نصوص كتابة التراجم والسير لشخصيات الارستقراطية، كما تميز التعليم بتعدد العلوم والمعارف المختلفة، وليست الدينية فقط ؛حيث أكد الضابط " **إيميل كومب** " في وصف حالة التعليم في الجزائر نهاية القرن 18م " ***كان التعليم العالي في أرض الجزائر يشمل جمهور كبير من المتعطشين للعلم والمعرفة، يجلسون حول شيوخ وعلماء لا يتلقون عنهم علوم الشريعة فحسب؛ بل يتلقون علوم الرياضيات والآداب، فكانت نتيجة انتصار أسلحتنا أن تفرق الشيوخ واضمحل التعليم العالي."***

وذلك نتيجة ما أصاب العلم الإسلامي من ركود وجمود فكري ابان الحركات الاستعمارية، غير أنه وفي الجزائر وعلى حد قول "**أحمد توفيق المدني**" واصل المجتمع الجزائري على طلب العلم والمعرفة في كامل أنحاء البلاد، أين انتشرت الكتاتيب والمدارس القرآنية والزوايا في المدن والقرى، وانتشر العلم بين الطبقات الراقية وقلت الأمية بين الطبقات الوسطى والعامة.

هذا بغض النظر عن المؤسسات الرسمية للتعليم التي أنشأتها الحكومة من أجل تشجيع نشر العلم بين الأهالي، حيث صرح الضابط الفرنسي " الجنرال **فيالار** " في كل قرية كانت توجد مدرستان أي حوالي ألفيّ مدرسة، في المدينة، كما كانت توجد معاهد وجامعات في الجزائر العاصمة **وقسنطينة ومازونة وتلمسان ووهران**، كما كان التعليم في الزوايا الكبرى إلزاميا، و لكل طريقة دينية عدة مدارس وعدة مواد مختلفة.

وفيما يخص البرامج التعليمية التي كانت سائدة في المدارس الجزائرية، وكما في مدارس العالم الإسلامي ، فقد كانت تتضمن بطبيعة الحال القرآن الكريم، والحديث النبوي، واللغة العربية وما يتفرع عنها من مواد تدريس، فضلا عن الرياضيات ومختلف العلوم الدقيقة. و أما الوسائل التربوية المعتمدة في المستويات التعليمية المتقدمة فكثيرا ما شجعت ممارسة المطالعة والبحث من خلال الوثائق، على إنشاء مكتبات ذات قيمة لا تحصى، حيث كانت اغلب المعارف السائدة تعتمد على الذاكرة والتفكير، والنقد والمنطق معا

3- السياسة التعليمية في العهد العثماني

من خلال وصفنا المبسط لحال وطبيعة التعليم ابان العهد العثماني، يمكننا أن نستنتج خصائص السياسة التعليمية أثناء هذا العهد.

لم يكن للدولة العثمانية إشرافا كبيرا على التعليم من حيث التمويل والإشراف والمتابعة الادراية ، ولا من حيث الأهداف والغايات ورسم السياسات، حيث لم يكن هناك وزير للتعليم ولا مدير ولا مسئولا مباشر عن العملية التربوية، إلا بعض الإسهامات المحتشمة **لمحمد كبير وصالح باي**... رغم أنها ليست مخططة ولم تخرج عن التعليم الديني التقليدي.

لقد كان التعليم في تلك الفترة ينبع من حاجة المجتمع الجزائري لتربية أبنائه، لذلك اعتمد على جهود الأفراد والعائلات والمؤسسات الخيرية... كما انطلق التعليم من تقاليد الجزائريين الراسخة، والتي تعود إلى عصر الحضارة وازدهار للعلوم والفنون أيام الدويلات الإسلامية أين تطورت المعارف العلمية المختلفة.

لأن الدولة العثمانية قد أهملت نوعا ما التعليم، إلا أن الأسر الجزائرية لم تفرط في تعليم أبنائها، وتحملت أعباءه وحافظوا على تحفيظ القرآن وتعاليم الدين والتعرف على مختلف العلوم والفنون.

أما بالنسبة لمهنة التعليم فقد اختلفت مكانتها حسب المرحلة التي يقوم المدرس بتعليمها، رغم أنها كانت من المهن الغير مرغوب فيها أو المربحة، إذ كانت مهنة تجلب لصاحبها الفقر فهي " رغم ما تجلبه من عطف الناس وتضامنهم والاحترام (للمؤدب) "، وهذا بالنسبة لمعلم المراحل الابتدائية والكتاتيب، لكن إذا ما تعلق الأمر بالتعليم العالي والثانوي فيختلف الأمر فقد كان المعلم من المحظوظين، فهو موظف لدى الدولة يعينه الباشا، أما في الأرياف فكان رجال التصوف والمرابطين يتنافسون على جلب طلبة العلم لزواياهم لنشر أفكارهم وجلب الأموال والصدقات والهبات.

إذن إن قضية انتشار التعليم بشكل واسع بين الناس في جزائر العهد العثماني " إنما يقصد بها التعليم الابتدائي، أو الحد الأدنى من التعليم **". فقد كان الدين الدافع الأول للتعلم** وكانت الدولة العثمانية تمارس الرقابة فقط.

إنه و من خلال تتبعنا لأصول المنظومة التعليمية في الجزائر، ومن خلال تلك البرامج التي كانت سائدة في جميع العصور، منذ الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي لها، ندرك

وحدة التفكير و**التخطيط والعمل** على عملية التعليم والتميز والفضل في هذه الوحدة يعود إلى مرجعية العقيدة الإسلامية، التي كانت مصدر العلم والمعرفة وأساس وحدة المسلمين آنذاك من سياسيين ومدرسين وعلماء وفقهاء وقضاة وأمراء وحكام، فقد كانت هذه العقيدة هي المصدر والمرجع الأساسي لجميع الأوامر والمتطلبات الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي السياسية أي في حدود ما تأمر به هذه العقيدة.

وبهذا التوافق المنطقي السليم ثبتت الوحدة العملية في التفكير والتخطيط بين رجال السياسة ورجال العلم والتربية ورجال الفقه، فلم يكن الصراع القائم في ذلك الوقت صراعا عقائديا بين الدويلات والحكام حيث لم يتجاوز دائرة السياسة والحكم، وما تعداها أبدا إلى العقيدة التي كانت المرجع الذي يحتكم إليه الجميع في كل شؤون الحياة.

المراجع المستعملة :

1- علي دينونة، المنظومة التربوية في الجزائر
2- محمد توفيق مدني ، كتاب الجزائر
3- ابوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي